# المحنـــــة

## محاولة لدراسة سننية . . (3)

**الأخ د. خالص جلبي**

**قانون حضاري :**

تقوم نظرية المؤرخ البريطاني المشهور أرنولد توينبي على فكرة التحدي والاستجابة ، وعندما درس المجتمعات الإنسانية اكتشف حوالي 600 مجتمع إنساني بدائي راكد لم يتحول إلى مرحلة الحضارة -بمعنى حركة المجتمع وتطوره- من هذه المجتمعات سوى حوالي 21 مجتمعاً فقط بنت حضارة ، وعندما بحث سر التحول وجده كامناً في شروط التحدي الذهبية التي قابلت هذه المجتمعات فتحركت إلى الحضارة

فظروف النقم والمحن هي التي تصقل الإرادة وتدفع بالإنسان إلى الأمام .

ولنستمع إلى تلخيص لنظريته (مختصر دراسة التاريخ -جزء أول- ص 464) :

**بداية الحضارات**

1- استعراض المشكلة : من بين مجتمعاتنا الحضارية الواحد والعشرين ، ثمة خمسة عشر تتصل بصلة البنوة بحضارات سابقة ، لكن ستة مجتمعات فقط قد انبعثت مباشرة من الحياة البدائية ، والمجتمعات البدائية هي في حالة سكون في الوقت الحاضر ، لكن من الواضح أنها لا يمكن أن تكون في الأصل ، إلاّ في حالة تقدم ديناميكي فإن الحياة الاجتماعية أقدم من الجنس البشري نفسه ، إذ توجد في محيط الحشرات والحيوانات .. ومع ذلك فإن المجتمعات البدائية كما نعرفها هي حالة سكون ومناط المشكلة لماذا وكيف تحطمت فرصة العادة البدائية هذه ؟

2- الجنس : إنّ العامل الذي نبحث عنه ، يجب أن ينحصر : إما في صفة خاصة في الكائنات البشرية التي بدأت عملية التحضر أو طائفة من مظاهر بيئتها وقت بداية الحضارة ، أو في شيء من التفاعل بين الجنس والبيئة . ولقد بحث المؤلف أول هذين الرأيين المتصل بوجود جنس متفوق تفوقاً فطرياً كالجنس النوردي مثلاً ، وأثبت بطلانه .

3- البيئة : بحث المؤلف الرأي القائل بأن أنواعاً من البيئات توفر الأسباب السهلة الميسرة للحياة وتتيح مفتاح أصل الحضارات ، وقد أثبت بطلان هذا الرأي .

**التحدي والاستجابة :**

1- المفتاح الأسطوري : يعزى ضلال الرأيين اللذين سبق بحثهما ونبذهما ، إلى تطبيقهما منهاج العلوم المادية – أي علميّ الحياة والجيولوجيا- على مشكلة ، هي في الواقع معنوية .

ويوحي استعراض للأساطير الكبرى التي أودعها الجنس البشري حكمته باحتمال أن الإنسان قد حقق الحضارة – لا نتيجةً لمواهب بيولوجية عليا أو بيئةٍ جغرافية –ولكن استجابةً لتحدي موقف ذي صعوبة خاصة ، استثاره الإنسان لبذل جهد لم يقم به من قبل .

2- تطبيق الأسطورة على المشكلة : كان السهب الافراسي (الصحراء الكبرى والصحراء العربية) قبل فجر الحضارة ، أرض رعي عامرة بالمياه ، وطالع الجفاف الطويل الأمد والمتتالي هذه المراعي ، فجابه سكانَها بتحد استجابوا له بطرائق مختلفة :

تمسك أفراد بأرضهم وغيروا عاداتهم ، فابتكروا نمط الحياة البدوية .

ونقل آخرون مواطنهم صوب الجنوب إلى المناطق الاستوائية ، متتبعين أثر المراعي المرتدة ، فاحتفظوا بطريقة حياتهم البدائية التي ما زالوا يعيشونها حتى الآن . وآخرون ولجوا مستنقعات وغابات دلتا النيل ، فجابهوا التحدي الذي تمثله ، وعملوا على تجفيفها ، فأقاموا الحضارة المصرية .

وانبعثت الحضارة السومرية بنفس الطريقة ومن نفس الأسباب ، في دلتا الدجلة والفرات .

وانبعثت الحضارة الصينية في وادي النهر الأصفر ، ولا تُعرف طبيعة التحدي الذي برز إلى الوجود لكن يبدو من الاستقراء ، أن الظروف كانت أبعد من أن توصف بالسهولة .

وانبعثت الحضارة المايانية من تحدي غابة استوائية ، وانبعثت الاندیانية من تحدي هضبة كئيبة .

وانبعثت الحضارة المينووية من تحدي البحر ، وكان مؤسسوها لاجئين من شواطئ أفريقيا التي أصيبت بالجفاف . فامتطوا البحر واستقروا في كريت وغيرها من جزائر بحر إيجه ، ولم يأتوا في بدء عهدهم من البر الأقرب في آسيا وأوروبا .

أما بالنسبة لحالات الحضارة التي تنتسب لغيرها ، فلا بدّ أن التحدي الذي أبرزها إلى الوجود قد جاء في الأصل –لا من العوامل الجغرافية- ولكن من البيئة البشرية أي من الأقليات المسيطرة للمجتمعات التي تتصل بها بصلة الجنس .

وتعريف الأقلية المسيطرة ، أنها طبقة حاكمة تعطلت وظيفتها القيادية فانتقلت إلى طاغية ، وتستجيب البروليتاريا الداخلية ، والبروليتاريا الخارجية للحضارة المنهارة ، لهذا التحدي عن طريق الانفصال عنها ومن ثم تضع أسس حضارة جديدة .

**فضائل المشقة :**

يكمن تفسير بدايات الحضارات –وفقاً لما ورد في الفصل السابق– في الفرض القائل بأن الأحوال الصعبة أكثر من السهلة هي التي تولد هذه الأعمال الجيدة .

ويقرب المؤلف هذا الفرض إلى حيّز الوقائع بفضل التفسيرات التي يحصل عليها من المواقع التي سبق أن ازدهرت الحضارة في ربوعها ، لكنها أخفقت بعد ذلك ، ثم كان أن انكفأت الأرض التي حالتها الأصلية : إن ما كان وقتاً ما مشهداً للحضارة المايانية هو في الوقت الحاضر غابة استوائية .

وازدهرت الحضارة السندية في سيلان في النصف الغير ممطر من الجزيرة ، لكنه أصبح الآن قاحلاً تماماً ، وإن ظلت آثار نظام الري السندي تشهد على ازدهار الحضارة هناك .

وتقوم أطلال بصرى وتدمر في واحات صغيرة في الصحراء العربية .

وتدل التماثيل القائمة في جزيرة ايستر –وهي من أقصى الأماكن بعداً في المحيط الهادي– على أنها كانت مركزاً لحضارة بولونيزية .

وتعتبر إنجلترا الجديدة التي قام مستعمروها الأوروبيون بدور غالب في تاريخ أمريكا الشمالية ، من أكثر أجزاء القارة كآبة وجدبا .

وقامت المدن اللاتينية مقاطعة كامبانا الرومانية وكانت حتى وقت قريب مباءة للملاريا بدور عظيم في قيام سلطان روما ، عكس الدور الضئيل الذي قامت به كابوا ، التي تتمتع بمركز ممتاز .

**تحدي البيئة :**

1– حافز البلاد الشاقة .
2– حافز الأرض الجديدة (البكر) .
3– حافز الضربات .
4– حافز الضغوط .
5– حافز النقم ..

**الوسط الذهبي :**

1- كاف وكثير جداً : هل في إمكاننا أن نقرر بكل بساطة أنه ، كلما اشتدت صرامة التحدي ، كلما ارتقى مستوى الاستجابة ؟

أو هل ثمة تحد ، أشد من أن يستثير استجابة ؟

بالتأكيد إنّ بعض التحديات قد استثارت في النهاية استجابة منتصرة ..

ولا يتأتى الدليل على أن التحديات يمكن أن تتطرف في صرامتها بمعنى أن التحدي الأقصى لن يبرز دائماً الاستجابة المثلى .. ا. هـ.

**فكرة تطور الطفل الروحي الحركي :**

يمكن أن تدخل هذه الفكرة أيضاً في بحث المحنة فكما أن الطفل يولد مكتملاً سوياً في العادة ثم ينمو نمواً سوياً ويتطور على المستوى الروحي والحركي بشكل معروف فمتى تبزغ الأسنان ومتى يتحمل الطعام ومتى يبدأ النظر والتقاط الأشياء واللعب والجلوس والوقوف والحبو والمشي الصحيح وبدء النطق والتعبير

وهكذا كل هذه الأمور معروفة وخاصة عند أطباء الأطفال فهم يعرفون الوضع الزمني ومقارنته مع تطور الطفل الروحي والحركي .

وهكذا فإذا بقي الطفل غير قادر على المشي حتى عمر السنتين فإن الطبيب يقلق ويبحث عن سبب في عدم قدرته على الوقوف والمشي هل هو كساح بنقص الكلس أو آفة عصبية أو شلل أطفال وما شابهه وهكذا ..

وكذلك الدعوات فإذا اكتملت بذرتها الجنينية وولدت فإنها تتطور ويجب أن يكون نموها وتطورها خاضعاً أيضاً لسنن وقوانين ، ومعرفة هذه الأمور يعرفها خبراء الاجتماع أكثر من غيرها ، وهكذا فإن الدعوة التي مر عليها عشرون سنة غير تلك التي مضى عليها خمسون سنة ودرجة قدرتها على المشي والاستغلال والنطق وما شابهه -وهو نوعي- يعرفه الإخصائيون جيداً ، وبذلك نرانا حتى نحكم على سير الحركة الإسلاميّة بحاجة إلى خبراء في هذا الصدد ..

- تمّ البحث -